

بيجوفيتش: فى الأخلاق والإيمان الدينى

بقلم محمد يوسف عدس

قرأت محاورات أفلاطون باستمتاع شديد وأنا طالب فى السنة الأولى بقسم الدراسات الفلسفية (سنة 1953=1954) وقد أثار إعجابى بها وحفزنى على قراءتها تعليقات شيقية من أحد أساتذتى هو الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى .. وعدت لقراءتها مرة ثانية أثناء ترجمتى لكتاب على عزت بيجوفيتش الموسوم بعنوان (الإسلام بين الشرق والغرب) وكان ذلك فى سنة 1992، وقد أصبحت كهلا فأنكشفت لى جوانب منها لم أتنبه إليها فى القراءة الشبابية الأولى .. وهانذا أعود إليها مرة ثالثة وأنا فى سن الشيخوخة حيث أراجع بروفات الطبعة الثالثة من الكتاب المذكور .. فقد اقتبس المؤلف فقرات من (محاورة فيدون) يتحدث فيها أفلاطون بكلام حكيم عن الخلق الأصيل يقول: "إن الشجاعة العادية ليست إلا جُبْنًا .. والإعتدال العادى ليس إلا شهوة خفية للذة" ويرى أفلاطون أن هذا النوع من الفضائل ليس إلا تجارة .. او هو على حد قوله: " شبح فضيلة أو هو فضيلة العبيد .. أما الإنسان الأخلاقى على وجه الحقيقة فيتملكه شوق واحد هو أن ينأى بنفسه عن المادى وأن يلتصق بما هو روحى ... " فأفلاطون كان يعتقد أن الجسد قبر للروح .. والروح فى هذا القيد الأرضى لا يمكن أن تصل إلى غايتها ومُبْتَغَاها .. وغايتها هى المعرفة الحقيقية .. هذه المعرفة لا تاتى إلا بعد الموت... " ويرتب أفلاطون على ذلك حقيقة مذهلة لم تكن لتخطر على بالى عند قراءتى المبكرة لنفس النص حيث يقول : " إن هذا هو السبب فى أن رجل الأخلاق لا يهاب الموت .. فلكى تحيا حياة حقيقية وتفكر تفكيراً حقيقياً لا بد أن تكون مستعداً دائماً للموت... " فإذا سألت أفلاطون لماذا يجب على رجل الأخلاق أن يكون دائماً على إستعداد للموت .. وأن يوطن نفسه على التعايش مع هذه الحقيقة الموجهة يجيبك قائلاً: " لأن الشر هو السلطة التى تتحكم فى هذا العالم .. والأخلاق والسلطة الحاكمة لا يمتزجان .. إنهما دائماً فى عداة وخصام ... " فرجل السلطة الباطشة يؤمن بأن إستئصال هذه القلة العنيدة من البشر هو الضمان الوحيد والأكيد لاستمراره فى السلطة على هذه الأرض .. ورجل الأخلاق (من ناحيته) إنما يتطلع إلى عالم آخر تتحقق فيه العدالة المطلقة .. فهو يستمد قوته وشجاعته من هذا العالم الآخر.. ولا يعبأ بأي تضحية أو تنكيل يأتية من جانب هذه السلطة الباغية .. أفلاطون إذن إستطاع ربما بالهام من الله أن يضع يده قبل ظهور المسيحية والإسلام على الحقيقة الخالدة: وهى أن الأخلاق والدين متلازمان .. هكذا أدت تأملات أفلاطون الأخلاقية به إلى موقف دينى .. وهذا ما لفت نظر على عزت بيجوفيتش إلى الفكر الأخلاقى لأفلاطون .. وهو (أعنى بيجوفيتش) المفكر الذى تتلمذ على سيرة سيّد البشر محمد صلى الله عليه وسلم الذى أعلن فى بلاغه للعالم أنه قد بُعث ليتمم مكارم الأخلاق ... ويعلم أنه لما سُئِلت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عن خلقه قالت: كان خلقه القرآن .. هذا القرآن الذى يزكى فيه رب العزة نبيه بقوله: { وإنك لعلى خلق عظيم } ..

من الناحية التاريخية ، يرى بيجوفيتش أن الفكر الأخلاقى هو أقدم الأفكار الإنسانية، ولا يسبقه فى هذا سوى الفكر الدينى، الذى هو قديم قديم الإنسان نفسه .. وقد إلتحم الفكران معا خلال التاريخ .. ففى تاريخ علم الأخلاق، لم يوجد عملياً مفكر جاد لم يكن له موقف من

الدين ، إما عن طريق إستعارة الضرورة الدينية كمبدأ للأخلاق .. أو عن طريق محاولة إثبات العكس .. ولذلك يمكن القول أن تاريخ علم الأخلاق بأكمله قصة متصلة لتشابك الفكر الديني والأخلاقي .. و يؤكد بيجوفيتش هنا بأن رجال الأخلاق المتدينين هم الذين يسودون .. وأما الملحدون فلم يسودوا أبدا ...

ولكن يلفت بيجوفيتش نظرنا إلى حقيقة لا ينبغي أن تغيب عن وعينا وهي ظهور حركة سُميت بـ (الأخلاق العلمانية) المتجرّدة من الدين .. وذلك خلال القرن التاسع عشر .. ظهرت في فرنسا وإنجلترا وألمانيا وأمريكا وإيطاليا .. وأطلق عليها أسماء مختلفة مثل: جمعيات الثقافة الأخلاقية، مؤسسات الإنعاش، الجمعيات الأخلاقية .. إلى آخر هذه الأسماء التي لا تدل على مضمون أخلاقي حقيقي سوى الإنفلات من الإيمان .. وإغلاق صفحة الدين في مدارس التعليم العام .. و من الحياة الإجتماعية .. ولأننا متخلفون عن أوربا قرنين من الزمان بدأت في القرن الواحد والعشرين تظهر عندنا مؤسسات مدنية مماثلة تدعو إلى هذا الإتجاه في التعليم المدرسي .. وتحت تأثير موجة الإرعاب والترهيب من نمو الإتجاهات الدينية الإسلامية (الإرهابية) إقترح (بل قل فرض) على وزارة التعليم في مصر برامج دراسية من قبل مستشارين أمريكيين (مقيمين وزائرين) .. برامج خالية من أي توجيه ديني حقيقي .. وفرض على مؤلفي كتب المطالعة مثلا حذف الآيات القرآنية منها .. واخترعوا بدلا من كتب الدين كتباً تسمى كتب الأخلاق دون إشارة إلى أي دين .. ولا أحب أن أخوض في تفاصيل هذا الموضوع .. لسبب واضح جدا سبق أن أشرت إليه في كتابات سابقة وهو أن قضية التعليم العام في مصر قد طويت صفحتها بالكامل ولا يمكن الحديث عنها الآن سلبيًا أو إيجابيا .. فقد إنهار النظام التعليمي تماما ولم يعد أمامنا إلا هياكل فارغة متهرئة أو أطلال من نظام مدمر كان إسمه التعليم العام في مصر .. وأرى أن كل قرش يُنفق على هذه الأطلال لا جدوى منه .. فقد حلت مكانه مؤسسة غير رسمية هي مؤسسة الدروس الخصوصية .. ومؤسسة أخرى إسمها التعليم الخاص .. وهو مزيج من التعليم الأجنبي والتعليم المحلي يغلب عليهما الإتجاهات التجارية بالدرجة الأولى .. والهدف النهائي هو : التعليم للأغنياء والقادرين فقط ولا شياً للفقراء وغير القادرين .. ومن المؤكد أن هذه المنظومات التعليمية لا يمكن أن تأخذ مأخذ الجدّ قضايا الوطنية والتربية والأخلاق في هذا الوطن التعيس بقياداته الجاهلة التي لا تعرف لها إنتماء ولا إتجاها ولا إرادة .. اللهم إلا إرادة السيد الأجنبي الذيملي خطته و يفرض إتجاهه هو وانتماؤه الخاص على هذه الأمة ...

والمهم فيما يتعلق بموضوع الأخلاق والدين أننا إذ نحاول فصم العروة بينهما إنما نحاول في حقيقة الأمر هدم الدين والأخلاق معا .. ولست أدري من المستفيد من هذه الجريمة الإنسانية والوطنية ...!! لذلك يؤكد بيجوفيتش مُلحًا على حقيقة الصلة العضوية بين الدين والأخلاق إذ يقول: " لا يمكن بناء الأخلاق إلا على الدين .. ثم يتعرّض لإشكالية جوهرية في طبيعة هذه العلاقة قد تؤدي إلى سوء الفهم أو إرتباك الفهم عند الذين يلاحظون السلوك الخلقى في الممارسات العملية اليومية .. فقد يصادفون رجال دين لا أخلاق لهم .. أو أناس يسلكون سلوكا أخلاقيا واضحا وهم غير ملتزمين دينيا ..

لا ينكر على عزت بيجوفيتش هذه الظاهرة الإجتماعية .. ولكنه يفسرها لنا فيقول: علينا أن نفهم حقيقة أساسية في العلاقة بين الأخلاق والدين .. فرغم أنهما متلازمان متساندان إلا أنهما ليسا شيئا واحدا .. فالأخلاق كمبدأ لا يمكن وجودها بغير دين .. أما الأخلاق كممارسة أو حالة معينة من السلوك فإنها لا تعتمد بطريق مباشر على التدين .. ويضرب على ذلك مثلا بالثورات التي شهدتها البشرية بصرف النظر عن مصدرها

الأيدولوجي .. فى كل هذه الثورات كان يسيطر على المنخرطين فيها الحماس ومشاعر الأخوة والإقبال على التضحية بالنفس والشجاعة والجرأة فى مواجهة المخاطر والمشقات .. وكل هذه المشاعر والقيم مصدرها الحقيقي هو دين ما .. دين يؤمن بالغيب والحياة الآخرة .. ولا يمكن أن تصدر من أى حقيقة مادية أو إجتماعية أخرى .. فلو توقف الإنسان لحظة ليفكر: (لماذا أقبل على التضحية بحياتى وأنا لا أملك فى هذه الدنيا إلا حياة واحدة ..؟ وليس هناك حياة أخرى أوصل الحياة فيها بعد الموت ..؟؟) لو توقف إنسان ليسأل نفسه هذا السؤال لسارع بالخرج من المعركة هربا من الموت الذى تنتهى على عتبه كل أمل فى الحياة .. هذا بالضبط ما كان يفعله الجنود الصرب عندما كانوا يواجهون المسلمين المجاهدين فى حرب البوسنة وجها لوجه .. وهو نفس ما كان يفعله الجنود اليهود فى غزة .. فأولئك وهؤلاء كانوا يواجهون شبابا لا يهابون الموت .. لأنهم يعلمون من دينهم الذى يؤمنون به أنهم فور إستشهادهم ينتقلون إلى حياة أخرى و عدهم الله بها .. فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. فرحين بما آتاهم الله من فضله .. أما الجندي الصربي أو الإسرائيلي فهو لا يؤمن إلا بهذه الدنيا ويتمنى أن يفلت من الموت فى كل مرة حتى يذهب فى إجازة نهاية الأسبوع ليأكل ويشرب ويرقص مع عشيقته ويسهر فى قصف ولهو حتى الصباح بعد أن يكون قد أنفق ما جمع من مرتبه فى الجيش خلال أيام الأسبوع ...

ينتقل بنا على عزت بيجوفيتش إلى نقطة أخرى وهو يحاول شرح منظومته الفكرية فى مجالى الأخلاق والإصلاح فيقول: " يؤدى الإلحاد (إنكار الدين) حتما إلى إنكار الأخلاق .. ولذلك فإن أى بعث أخلاقي حقيقي يبدأ دائما بيقظة دينية .. فالأخلاق على حد قوله: إنما هى دين تحوّل إلى قواعد للسلوك يعنى تحول إلى مواقف إنسانية تجاه الآخرين .. فإذا كان لزاما علينا أن نؤدى واجبنا الأخلاقي (بصرف النظر عما يواجهنا من مصاعب أو مخاطر فإن هذه الدعوة لا يمكن تبريرها إذا كان هذا العالم هو العالم الوحيد .. وإذا كانت حياتنا الدنيا هى الحياة الوحيدة .. وهنا تبرز نقطة الإنطلاق لكل من الدين والأخلاق ...

فى هذه اللحظة (مساء السبت 28 فبراير 2009) وأنا أوصل الكتابة أسمع على قناة الجزيرة بداية حلقة جديدة من برنامج زيارة خاصة .. وكانت الزيارة لشخصية أسرة كان لى مع صاحبها ذكريات لا يمكن أن تنسى مهما طال الزمن .. أما صاحب هذه الشخصية فهو "مختار أمباو" مدير عام منظمة اليونسكو الذى تشرفت بالعمل تحت قيادته سبع سنوات قبل أن يعتزل الوظيفة ويعود إلى وطنه (السنغال) ليستقر فيه مع أسرته .. إنه الآن فى السابعة والثمانين من عمره .. يحيا حياة روحية مطمئنة .. بعد جهاد شديد فى عمله الشاق بمنظمة اليونسكو .. حيث واجه بمفرده حملات دعائية كاذبة من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل .. واجه المؤامرات الأمريكية بالحجة والمنطق .. ولم يستسلم للضغوط التى مورست عليه .. ولم يتراجع إلى آخر لحظة عن مساندة القضية الفلسطينية وعن حق ممثلى منظمة التحرير بمقعد مراقب فى الجمعية العامة لمنظمة اليونسكو .. ومقاومة أعمال الحفر والإستكشاف الإسرائيلية تحت المسجد الأقصى وحوله .. باعتبار إسرائيل دولة إحتلال بمقتضى قرار الأمم المتحدة .. ومن ثم لا يجوز لها ان تقوم بأعمال حفر أو إستكشاف فى أراضى الدولة المحتلة وتعرض أثارها الثقافية والدينية للخطر ... لقد تفاقمت المواجهة مع امريكا وإسرائيل إلى أبعاد تآمرية خطيرة .. ولكن رجل الأخلاق المعتم بصينه وإيمانه لم ينكسر ولم يستسلم للطغيان والمؤامرت .. وهكذا ترى أن شخصية "مختار أمباو" من أصدق النماذج لشخصيات معاصرة تتمثل فيها قوة الإيمان الديني والموقف الأخلاقي فى آن واحد .. نحن إذن لم نخرج من إطار موضوعنا الأساسي .. فى العلاقة بين الدين والأخلاق

الذى نستعرضه مع على عزت بيجوفيتش الذى كان هو نفسه نموذجا آخر من هذه النماذج
الإنسانية الرائعة لتعانق الإيمان الديني الصحيح مع الأخلاق الصحيحة .. أما قصة مختار
أمباو فى هذا الإطار نفسه فأرجو أن نعود إليها فى مقالة لاحقة بمشيئة الله ...